

الفعل يغشى
في القرآن الكريم

دراسة

في تحولاته الدلالية والأسلوبية

إعداد:

د. إسراء مؤيد رشيد

التدريسية في قسم علوم القرآن/ كلية التربية للبنات/

جامعة بغداد

ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وأصحابه الغر الميامين إلى يوم الدين. إن الخطاب القرآني خطاب قصدي جاء به ﷺ ليحقق من خلاله كثيراً من الأهداف التي كانت تمثل محور حياة البشر والناس جميعاً فهو بلاغ مبين يخاطب العقل والنفس معاً ليصل بهما إلى القناعة المطلقة بوجوده والإيمان به ، ولذلك نراه أتى بأساليب مهمة وموضوعات تقوم على تقرير هذه الأهداف فكان من بينها الفعل (يغشى) بما أتى عليه من صيغ دالة وبُنى متحولة أسهمت في إثبات قيمتين مهمتين هما:

- القيمة الفكرية: التي تقوم على الاحتجاج، فبُنى مثلها مثل الكثير من البُنى الأخرى غرضها هو الإفهام، والتذكير، والإيقاظ ... الخ.

- القيمة البلاغية: التي تنطوي على الكثير من الأساليب التي تغنينا بالكثير من المعاني التي تهدف إلى تحريك الأذهان للوصول إلى المقصد الأكبر فضلاً عن القيم التصويرية والإيحائية .

قامت دراسة بنى الفعل وتحولاته على خمسة محاور حسب ما استحدث السياق من دلالة مضافة:

الأول : كونه (صوره مهمة ضمن تراكيب تصويرية وإيحائية) صورت لنا الكثير من الحالات النفسية وغيرها.

الثاني: جاء ليدل على معنى (الرفض من خلال تصوير سلوكيات الكافر والمعاند والمتكبر والمتعامي آيات الله تعالى).

الثالث: فتضمن معنى (الالتحام) ليصور أقدس العلاقات وأهمها بين البشر وهي العلاقة الزوجية.

الرابع: دلالة (الزمن) من خلال تصوير عملية تعاقب الليل والنهار في موضع التدليل على قدرته تعالى كونها من الأدلة الواضحة أمام أعين الناس وطالما أبهرتهم .

الخامس: دلالة الهلاك والعذاب والتخويف إذ يأتي الفعل (يغشى) ليكون العذاب نفسه فهو السبب والنتيجة في الآن نفسه.

Abstract

The verb "Cover" in the Holy Quran :

Study in the stylistic change and it's significances

The Quranic address is intentional in that Almighty God come up with to achieve many goals constituted the pivot of people's life . It was a plain statement that addressed the mind and self together to reach into an absolute satisfaction in its existence and to believe in it . therefore , it comes up with important styles and topics based on such goals among which the verb "cover" and its significant formula and changed structures which participated in verifying two important values:

1.Intellectual value being based on protest to have many structures with the aim of comprehending , reminding and awakening .

2.Rhetorical value being based on many styles that provide us with many meanings that aim to move the minds to reach the big or main idea , in addition to the depiction and gestures values .

The study of verb structures and its changes is based on five pivots according to the context and what it gives as an additional significance :

1.Being an important picture within depiction and gesture structures portraying many psychological stales .

2.It comes to signify the meaning of "refusal" through picturing the behaviour of the disbeliever , resistant , arrogant and the blind who cant see the verses of God .

3.It includes the meaning of "union" to depict the scared relation among people which is the "marital relationship" .

In addition , we have the "time" significance through depicting the process of day and night alternation to show God's greatness since the process is quite clear to people who are really impressed .

Finally , the significance of destruction , torture and intimidation and the verb "cover" comes to be the torture itself ; it is the reason and result at the same time .

المدخل:

لما كان هدف القرآن الكريم وكما هو معروف لمن يتفحص آياته هو إيصال العقل الإنساني إلى القناعة المطلقة بوجود خالق هذا الكون والإيمان بما جاء به من بلاغ مبين لكونه دستوراً مهماً في الحياة إذ جاء أسلوبه محتوياً على مختلف الأساليب والموضوعات التي تقوم على تقرير هذا الهدف، فكان من بينها أسلوب الجدل والحوار والاحتجاج لكونها من الأساليب التي تخاطب العقل. وكثيرة الأدلة المستعملة في هذا المجال فكان من بينها الفعل (يغشى)، وقد أنتج لنا الخطاب القرآني فيضاً من البنى المتحولة لتشكل كل بُنية فيه دليلاً مهماً في إثبات تلك الحقائق فضلاً عن كونه دليلاً على جمال نظم وأسلوبه الفريد، وربما يتبادر إلى الذهن إن التحول في الفعل يغشى يقوم على الاستبدال^(١) وحده وإنما التحول فيه يقوم على وجود دلالة مضافة، فكلما تنوعت الصيغ الدالة عليه ومشتقاته يكون هناك إنتاج دلالي مستمر وهذا هو سر تفرد لغتنا عن بقية اللغات لا سيما لغة القرآن الكريم وربما هذا ((ما حير العديد من فلاسفة اللغة الذين يتساءلون عن سر توليد الدلالة، وكيف أن اللغة تكشف وتخفي في الآن نفسه))^(٢).

فالدلالة إذاً لا تنشأ من فراغ وإنما تنشأ من هذا التنوع المستمر في الصيغ والأساليب وهي ما يتوصل بها إلى معرفة الشيء كدلالة الألفاظ على المعنى^(٣)،

^١ الاستبدال: يراد به شيء يقوم مقام شيء.

^٢ ينظر: السيميائية وفلسفة اللغة، إمبيرتوأكو، ترجمة احمد الصمعي: ٢٤.

^٣ ينظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، مادة (دل).



وكلما تنوعت الألفاظ وتكررت تنوعت دلالاتها وقد يكون في تنوعها استقراراً لها، يقول الزركشي: ((إن الكلام إذا تكرر استقر))^(١) وقد نلمح هذا الكلام في بعض من آيات الفعل يغشى كما في قوله تعالى في سورة النجم آية ١٦، التي سنأتي على بيانها في موضعها إنشاء الله، إن التنوع والتغير في صيغة اللفظة يحيلنا إلى الكثير من المعاني التي تخصها وتصفها وهذا يجعلنا نتعرف على تلك اللفظة بمختلف صيغها واستعمالاتها حتى تستقر في أذهاننا وهذا ما لاحظناه في الفعل (يغشى) ومن هنا يتحقق الهدف.

وما قلناه في التنوع وقيمه في إثراء الذهن بالمعاني المختلفة ينطبق على مصطلح التحول في الكلام، والتحول معناه : تحول عن الشيء زال عنه إلى غيره، ويكون التحول تغيراً وكذلك كل متحول عن حاله^(٢).

وقد يكون لهذا المصطلح جذور تاريخية منها (التردد)، و(الإتياع)، و(المحاذاة)^(٣)، وحديثاً أطلقوا عليه (التناص)^(٤).

وما يقرب من معناه العدول، فالعدول ينشأ نتيجة التحول في الكلام أو التحول في صياغة اللفظ أو التحول من أسلوب إلى آخر أو من حرف إلى آخر^(٥). ومن معانيه أسلوب (الالتفات) الذي ينصرف الكلام فيه من معنى يكون فيه إلى معنى آخر^(٦).

أما التحول في القرآن الكريم وهو موضع اهتمامنا، إذ مهما حاولنا أن نجد ما يقرب من هذا المعنى في تأريخ الأدب إلا أننا حينما نأتي إلى أسلوب القرآن نجده

^١ البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي ١٠/٤.

^٢ ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (حَوَّل).

^٣ ينظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام: ٥٥.

^٤ ينظر: تحليل الخطاب الشعري استراتيجية التناص، د. محمد مفتاح: ١١٩.

^٥ ينظر: الطراز، العلوي ١٣٢/٢؛ وينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير ٢٤١/٢.

^٦ ينظر: البديع، ابن المعتز: ٥٨.



يمكن أن يكون نظاماً أسلوبياً يختص به دون غيره يقوم على التعددية في طرح الموضوع الواحد، فالبنية التي تشتمل على التحول لها قدرة على تغيير النسق كلياً أو جزءاً منه إلى تشكيلات جديدة دالة، وبحسب المقام أو السياق الذي ترد فيه، وهي هنا ضمن هذه الدراسة تعني: التحول الدلالي في صيغ الفعل (يغشى) على مداد وروده في القرآن الكريم.

ولا يفوتنا ونحن نتحدث عن بُنى الفعل (يغشى) وتحولاته أن نشير إلى قيمتين مهمتين تنطوي عليها:

١. القيمة الفكرية: التي تقوم على الاحتجاج وهذا ما أشرنا إليه آنفاً، فبنى هذا الفعل مثلها مثل الكثير من البنى الأخرى غرضها الإقناع والتذكير والترهيب والترغيب والبيان والإيضاح والتفسير... الخ لذلك نراه قد تردد في السور المكية أكثر منه في السور المدنية كونها نزلت أول ما نزلت لتحقيق هذه المقاصد الكبرى.

٢. القيمة البلاغية: التي تنطوي على الكثير من الأساليب المهمة التي تغنينا بالكثير من المعاني التي تهدف إلى تحريك الأذهان للوصول إلى المقصد الأكبر، ومن خصائصها أنها تقوم على الحذف والإضافة والاختصار مع عدم اللبس كما في قوله تعالى: ((فَغَشَّيْهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ مَا غَشَّيْهُمْ))^(١)، أو لإطناب الذي يراد به أحياناً إدخال الروح في قلب السامع كما في قوله تعالى (الغاشية)^(٢) التي وصفها الخطاب القرآني بشكل مفصل للوصول إلى هذا الهدف^(٣)، فضلاً عن القيم التصويرية والإيحائية.

^١ سورة طه، الآية: ٧٨.

^٢ سورة الغاشية، الآية: ١.

^٣ ينظر: التحرير والتوير، ابن عاشور ١/١٢٠.

وتُعَدُّ هذه البُنى في نظامها وتشكلها داخل النظام الهندسي لبُنى الخطاب القرآني أصغر بُنية يطلق عليها (بالتمثلات)^(١) مقارنة ببُنى أكبر وأخرى صغرى موجودة فيه.

إذ تكون هذه البُنى أكثر تردداً على صعيد الآية الواحدة وتقوم ما تقوم به البُنى التفصيلية والمجملّة في أدائها الدلالي والجمالي فهي بُنى تركيبية تامة المعنى تتسم بالإيجاز المكثف وتعطي تصوراً على نحو ما في ذهن المتلقي عن المعنى فهي تشير إمّا عن طريق اللمح أو قرائن لغوية دالة وتجمله على نحو سريع، ومن خصائصها أنها تثبت بين آيات السورة على وفق ما يستدعيه المقام ويقضيه السياق ووظيفتها الرئيسية هي التذكير كما قلنا فضلاً عن التفسير^(٢).

ويفيدنا رصد هذه التمثلات التعرف على ما جرى فيها من تحولات في مستوى التركيب والدلالة والوظيفة.

إذا حظى المستوى التركيبي بعناية علماء لغة العرب لأن الألفاظ المفردة لا تظهر فضيلتها إلا من خلال السياق، وتكمن أهمية السياق في تقرير معنى المفردة وتحديدده، فالكلمات لا معنى لها خارج مكانها من السياق وهذا ما أكدّه عبد القاهر الجرجاني في كتبه^(٣) إذ يقول: ((وانك لتجد اللفظة الواحدة قد التبتت فيها فوائد، حتى تراها مكررة في مواضع، ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد، وشرف منفرد، وفضيلة مرموقة، وخلاصة موموقة، ومن خصائصها التي نذكر بها، وهي عنوان مناقبها: إنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الثرر؛ وتجنّي من الغصن الواحد أنواعا من الثمر...))^(٤) بمعنى أن اللفظ الواحد إذا تكرر واختلف موقعه من جملة إلى أخرى

^١ ينظر: تحولات بُنى الخطاب القرآني، بلقيس كولي، ط بإشراف د. حيدر لازم مطلق: ٦١.

^٢ م. ن: ٦١.

^٣ ينظر: دلائل الإعجاز: ٤٦؛ دور الكلمة في اللغة، استيفن اولمن، ترجمة: كمال محمد بشير: ٥١؛ علم الدلالة إطار جديد، ف ر بالمر، ترجمة صبري إبراهيم: ١٤٢.

^٤ أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني: ٢٣.

أعطى أكثر من دلالة وما قاله عبد القاهر الجرجاني ينطبق على الفعل (يغشى)، إذ تردد هذا الفعل بصيغ مختلفة فأنتج لنا دلالات و وظائف مختلفة أيضاً، الذي يحدد هذا الشيء، الدلالة والوظيفة والسياق بطبيعة الحال، لذلك تكون دراسته على محاور عدة بحسب ما ورد فيه من دلالات:

قد جاء الفعل (يغشى) في معنى (الستر أو الغطاء) وهو المعنى القار أو المعجمي وهو مأخوذ من (غشي) : غَشِيَةً وَغِشَاوَةً وَغِشَاءً : أتاها أتيان ما قد غشيه أي ستره، والغشاوة: ما يغطي به الشيء^(١).

المحور الأول: (التصوير والإيحاء)

قد يأتي الفعل يغشى في تراكيب تصويرية وإيحائية لتمثيل الكثير من الحالات النفسية وتصويرها، كلٌ منها يشير الى دلالة جديدة وأغراض مقصودة.

حالة الأمن والطمأنينة في موضع الخوف والشدة، وذلك ما جاء في قوله تعالى: ((ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ...))^(٢).

فدلالة (الغشيان) وإن كان معناه التغطية ولكنه في هذا الموضع وقد ارتبط بالنعاس والأمن هو الشعور بالطمأنينة والسكينة وفيه دلالة عدم الخوف، وذلك لأن النعاس حالة الأمن الذي لا يخاف^(٣).

كيف يمكن أن يحدث مثل هذا الشعور وهم في موضع قتال وهزيمة؟! هنا يمكن أن تتجسد قدرة الله تعالى ورحمته بعباده المؤمنين الصادقين، فقد مدهم بنوع من النعاس الذي شملهم بعد شعورهم بالخوف والهزيمة فكان نتيجة هذا الإحساس

^١ ينظر: المفردات، مادة (غشي).

^٢ سورة آل عمران، آية: ١٥٤.

^٣ ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ٣٢٦/٧.

الآمن المطمأن^(١)، وفي هذا تصوير نفسي بديع فالنوم يذهب عن صاحبه إذا استيقظ كل تعب.

وقد تردد هذا المعنى في سورة الأنفال في قوله تعالى: ((إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ))^(٢).

لقد فصلَ الخطاب القرآني هنا في الصفات التي ملكتهم من الإحساس بهذا الشعور فهو ليس النعاس وحده وإنما هناك عوامل أخرى كلها اشتركت لترسم لنا هذه الحالة النفسية العجيبة، وقد تحول الفعل (يغشى) هنا إلى (يغشيكُم) فالتشديد هنا يفيد في تأكيد هذا الشعور في نفوس متلقيه وربما جاء النعاس هنا في موضع الفاعلية لتأكيد هذه الحالة وقد عبّر عن الغشيان في كلا الجملتين بالصيغة الفعلية التي تفيد معنى الاستمرارية والحوث^(٣)، وهذا دليل على استمراريته إلى أن يتحقق النصر لهم.

ولو أمعنا النظر في الآيتين الكريمتين لوجدنا أن النعاس في الآية الأولى سبق الاغشاء أما في الآية الثانية فالإغشاء سبق النعاس لأن الآية الأولى نزلت بعد معركة أحد إذ كانت حاجة المسلمين بعدما أصابهم ما أصابهم إلى الأمن الطمأنينة لذلك جاء الفعل يغشى لتأكيد ذلك، أما الآية الثانية فإنها كانت في معركة بدر، فكانت حاجة المسلمين إلى الراحة والنوم، لأن الله تعالى تكفل لهم بالنصر.

وعندما أراد تصوير حاله الخائف في مكان كان لا بد له من الثبات والإقدام وهي صورة المنافقين أو المعوقين فقد صورها لنا بقوله تعالى: ((أَشْحَاةٌ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَوْنَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغَشَّى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ

^١ ينظر: الكشف، الزمخشري: ٢٠٠؛ في ظلال القرآن، سيد قطب، م ١: ٤٩٥.

^٢ سورة الأنفال، آية: ١١.

^٣ ينظر: معاني الأبنية، فاضل السامرائي: ٩؛ لمسات بيبانية في نصوص من التنزيل، د. فاضل السامرائي: ١٢.

الْخَوْفُ سَلَفُكُمْ بِالْإِسْنَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَخْبَطَ اللَّهُ أَغْمَالَهُمْ
وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا^(١).

جاء هذا الوصف في معرض السرد الإخباري، فهي صورة تتحدث عن موقف المنافقين وخوفهم وانعكاسه عليهم فهي صورة تعتمد العنصر النفسي الذي يعكس الظواهر الداخلية إلى مظهرها الخارجي، فالخوف سلوك داخلي رسم النص انعكاساته عليهم بدوران العين وصورة المغشي عليه من الموت^(٢) فصورة (الاغشاء) صورة تشبيهية غرضها توضيح حالة الخوف وتجسيده بهذا المظهر المادي وربما أراد من هذا التشبيه رسم شدة هذا الخوف وقد يكون في هذا الوصف دلالة على جنبهم وحبهم للحياة أكثر من كل شيء، فالجبان ينظر يميناً وشمالاً حاله كحال الذي تغشاه سكرات الموت لذهوله وشدة خوفه^(٣) وقد يكون الغرض من هذا الكلام تصويراً لعلم الله تعالى بنوايا البشر والخلائق.

وفي هذا المعنى تردد الفعل (يغشى) بقوله تعالى: ((الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ^(٤))).

فقد خص في هذا النص المنافقين بقوله: ((في قلوبهم مرض)) واصفاً نفاقهم بأنه مرض وكيف يمكن أن يؤدي المرض بصاحبه فمن الأمراض ما هو أكثر خبائثة من غيره وفي هذا بيان وتفسير لسبب خوفهم فالمنافق حاله حال المريض نفسياً لا يشعر إلا بالخوف والتوتر. وجاء الفعل (يغشى) بصورة اسم المفعول مشتقاً من الفعل المبني للمجهول في تلك الآية وفي كليهما تأكيد لهذه الصفة كما أن الوصف بالاسمية أثبت.

وقد يعمد الخطاب القرآني إلى أسلوب بعينه ليصور لنا أمراً أو واقعة معينة وفي ذلك قصد دلالي مثلما استعمل أسلوب الحذف أو الاختصار وهو من الأساليب التي

^١ سورة الأحزاب، آية: ١٩.

^٢ ينظر: دراسات فنية في صور القرآن: ٥١٨-٥٢٠.

^٣ ينظر: تفسير الكشاف، ٨٥١، وينظر القرآن والصورة البيانية، د. عبد القادر حسين، ٤٠.

^٤ سورة محمد، آية: ٢٠.

لا تخفى أهميتها على عارف باللغة، فهذا الأسلوب يذهب بالسامع كل مذهب وفيه يستطيع الأديب أن يتفنن وإن يجعل من الحذف ميداناً للتخيل أو التصور^(١) كما أن الحذف لا يحذف إلا عندما تكون الدلالة على المحذوف واضحة في ذهن المتلقي، سواء أكانت في الحال أم في فحوى الكلام^(٢) وقد أطلقوا عليه حديثاً بالانزياح^(٣) كما في قوله تعالى: ((فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ مَا غَشِيَهُمْ))^(٤) وهذا من باب الاختصار^(٥) وفيه تمثيل وتصوير لأنواع الهلاك الذي أصاب قوم فرعون من خلال هذا المكان الذي أصبح معادياً لهم بعد ما كان آمناً لموسى وقومه، وقد عبر عن هذا الهلاك بالغشيان، فالتكرار الذي أتى به هذا الفعل فضلاً عن وجود (ما) الوصفية التي دلت على التعظيم والتكثير على هذا الترتيب من النظم، يفسح المجال أمام خيال المتلقي ليتصور ما لا يمكن تحديده بوصف مهما بولغ بهذا الوصف^(٦) فدلالة الغشيان هنا الشمول بأنواع الهلاك الذي يمكن أن يأتي من هذا المكان، وهو في نهاية الأمر تصوير لقدرة الله تعالى في موضع العقاب وفيه ترهيب للنفوس.

ومما جاء في هذا الباب أيضاً قوله تعالى: ((عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى {١٤} عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى {١٥} إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى))^(٧) مع فارق ما انطوت عليه هذه الآية من الوصف والتصوير، قيل: إن ما يغشاها من الخلائق الدالة على عظمة الله أشياء لا يكتفيها النعت ولا يحيط بها الوصف^(٨) وفي هذا الوصف ترغيب وتشويق للنفوس ولما كان الكلام هنا عن حالة ستقع في المستقبل - ما يخص الجنة واليوم

^١ ينظر: الشعرية، د. احمد مطلوب: ٨٤؛ مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد الأربعون ج ٣.

^٢ ينظر: النكت في إعجاز القرآن، للرماني: ٧٦، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

^٣ ينظر: بنية اللغة الشعرية، جون كوهين: ١٤٨.

^٤ سورة طه، آية: ٧٨.

^٥ ينظر: الكشف: ٦٦٢.

^٦ ينظر: من بلاغة القرآن، محمد شعبان علوان، د. نعمان شعبان علوان: ٧٢.

^٧ سورة النجم، الآيتان: ١٤-١٦.

^٨ ينظر: الكشف: ١٠٦٠.

الآخر وهي من المغيبات المستقبلية - عبّر عن الغشيان بصيغة المضارع على عكس الكلام في الآية السابقة حيث أتت بصيغة الماضي لأنها واقعة تتحدث عن غيب مضى كما وفي دلالة المضارع ما يفيد استمرارية الغشيان ودوامه واستحضاره في مخيلة القارئ ولكي يؤكد هذه الدلالة ويقرها في ذهن المتلقي أتى بالفعل يغشى مكرراً والذي من شأن أسلوب التكرار أن يضيفي على معنى اللفظة المتكررة استقراراً وثباتاً وهذا ما يؤكد قول الزركشي السالف الذكر إذا تكرر الكلام استقر.

المحور الثاني: (الرفض)

(دلالة الرفض) وقد يدخل هذا المحور ضمن المحور الأول أيضا ولكنه أفرّد بالدراسة لظهور هذه الدلالة أكثر من غيرها.

قال تعالى: ((إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ {٦} خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ))^(١).
لقد استخدم الخطاب القرآني في هذا النص أكثر من صفة لبيان وتوضيح هذه الدلالة وهي الختم والغشاوة وقد أراد من هاتين الصفتين تفسير سلوكيات هؤلاء الناس من تكبر وغفلة وعدم الانقياد لأوامر الله تعالى الذي كان نتيجة أن إنذارهم وعدم إنذارهم أصبح سواء، وفي هذا تأكيد لعدم إحساسهم المطلق لأنه لا يوجد غير القلب والسمع والبصر مراكز للإحساس والإدراك، وقد خص القلب والسمع بالختم استعارة والبصر بالغشاوة تمثيلاً^(٢) لدلالة يقصدها الخطاب القرآني.

والغشاوة: معناها: الغطاء على وزن فعالة وهذا البناء يفيد معنى الشمولية في الوصف والمبالغة أي أن على أبصارهم نوعاً من الأغشية غير ما يتعارفه الناس وهو غطاء التعامي عن آيات الله الذي يكون نتيجة بأن لهم من الآلام العظام نوع عظيم لا يعلم كنهه إلا الله تعالى^(٣) وجاءت (غشاوة) منكرة لتدل على نوعية هذه

^١ سورة البقرة، الآيتان: ٦-٧.

^٢ ينظر: الكشف: ٤٢.

^٣ م. ن: ٤٣.

الغشاوة، فالتكثير هنا للتعظيم، أي غشاوة عظيمة تحجب أبصارهم دفعة واحدة تحول بينهم وبين الإدراك^(١).

وربما يتبادر إلى الذهن، كان بإمكان البصر أن يكون مختوما عليه أي: مسدودا أيضا حاله حال القلب والسمع كما لو أغلق الكافر عينه مثلا لأن النص قد قصد من هذا أنه عديم البصر نتيجة سلوكه المعاند للرافض فلا بد من وضع شيء على بصره من الخارج حتى يحجزه من النظر إلى ما حوله وهذا ما يتناسب مع الغطاء، لأن أبسط غطاء يقوم بهذا الغرض وهو في النهاية يريد أن يرمز إلى الانغلاق التام في ذهنية الكافر فيما لا أمل في إصلاحه^(٢).

وقد يكون في هذا الكلام إشارة و تنبيه إلى أن هذه الصفات في فرط تمكنها وثبات قدمها كالشيء الخلفي غير العرضي لذلك جاء بالجملة الاسمية في صورة الاغشاء، وفي سورة الجاثية يتردد هذا المعنى بقوله تعالى: ((وَحَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ))^(٣).

ولكن صفات الكفر في البقرة أكثر تمكناً فيهم من الجاثية، فقد ذكر في البقرة أن الإنذار وعدمه عليهم سواء وإنهم ميثوس من إيمانهم ولم يقل مثل ذلك في الجاثية ثم عبّر عن الإغشاء في سورة البقرة بالجملة الإسمية وهي كما معلوم تفيد الدوام والثبات ومعنى ذلك أن هؤلاء لم يسبق لهم أن أبصروا وإنما هذا شأنهم وخلقهم فلا أمل في أبصارهم في يوم من الأيام في حين جاء في سورة الجاثية بالجملة الفعلية التي تفيد الحدوث، ومعلوم أن جعل فعل ماضٍ ومعنى ذلك أن الغشاوة لم تكن قبل الجعل بذلك على ذلك قوله تعالى: ((أو أضله الله على علم))^(٤) مما يدل على أنه كان مبصراً قبل ترديه^(٥).

^١ مفتاح العلوم، السكاكي: ١٩٣.

^٢ ينظر: دراسات فنية في صور القرآن، محمود البستاني: ٦-٧.

^٣ سورة الجاثية، آية: ٢٣.

^٤ سورة الجاثية، آية: ٢٣.

^٥ ينظر: التعبير القرآني، د. فاضل السامرائي: ٦٤-٦٥.

ومن تحولات الفعل (يغشى) في هذا المعنى تحوله في قوله تعالى: ((وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ))^(١) إلى الرباعي المهموز بصيغة المتكلم الجمع الذي يدل على القدرة الإلهية والعظمة الربانية فاجعل جَعَلُهُ والإغشاء إغشاؤه إذ كان هذا نتيجة إصرارهم وتصميمهم على الكفر والتعامي عن النظر في آيات الله تعالى في الآفاق والأنفس.

لقد اختلفت هذه الآيات عن التي تسبقها وإن كان الذي يربطها وجود الفعل (يغشى) إلا أنه قد استبدل صورتي القلب والسمع بالأذقان وجوانب الجسم لنتعرف على صور ودلالات جديدة في المعنى نفسه، إذ مثل لعدم انقيادهم لله تعالى ومنعهم من الإيمان، بصورة الأغلال التي منعهم من الحركة مجرد الالتفات يميناً أو شمالاً ثم بالسدين الذي شمل أجسادهم التي منعهم من الحركة خطوة واحدة ثم صورة (الإغشاء) التي زادت في تقييد حركتهم فضلاً عن عدم الحركة عدم الرؤية فكيف بعد هذا يهتدون؟! وقد يكون الفاعل لعدم الحركة وعدم الرؤية السد نفسه وهذا ما دلت عليه (الفاء) الموجودة في الفعل (فأغشيناهم) ذلك لالتصاق السد وقربه منهم من الأمام ومن الخلف الذي أصبح كالغشاوة^(٢).

ومن تحولاته في هذا المعنى قوله تعالى: ((أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُغْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ))^(٣).

جسد لنا الخطاب القرآني في هذا النص سلوك الكفار حيال النبي ﷺ وما يضمرونه من البغضاء والكفر والعدوان بصورتين مهمتين هي إثناء الصدور وهي تعبير رمزي لانحرافهم عن الحق وأخرى حركية وهي استغشاء الثياب^(٤)، واستغشاء

^١ سورة يس، آية: ٩.

^٢ ينظر: الكشف: ٨٩٠-٨٩١؛ تفسير النسفي ٤/٤؛ على طريق التفسير البياني، د. فاضل السامرائي ٢٢/٢-٢٥.

^٣ سورة هود، آية: ٥.

^٤ ينظر: دراسات فنية في صور القرآن: ٢٤٩؛ في ظلال القرآن ٤/١٨٥٥-١٨٥٦.

الثياب كناية وتمثيل لحالهم وزيادة في الاستخفاء وفي ذلك دلالة على كراهة الاستماع إلى كلام الله تعالى^(١)، وهذا هو الرفض والصدود بعينه، فالفعل (يغشى) ما كان ليدل على هذه الدلالة لولا ارتباطه بسياق النص ككل من معنى وتركيب معجز وبلغ وهذا ما أكدته عبد القاهر الجرجاني في معرض كلامه عن المفردة وقيمتها داخل التركيب أو النص وربما يكون الغرض الحقيقي من هذا التصوير البليغ بياناً لعلم الله تعالى الذي ظل يتابعهم في أخفى أوضاعهم، ولكي يستحضر هذه الصورة كاملة في أذهان المتلقين جاء بها بصيغة المضارع.

وقد تكررت هذه الدلالة في سورة نوح وذلك في قوله تعالى: ((وَأَنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا))^(٢) إلا أنه في هذه الآية استبدل صورة إثناء الصدور بصورة جعل الأصابع في الآذان وهي من المجاز المرسل الذي يعبر بها عن الرفض المتعمد وقد أكد هذا المعنى بصورة استغشاء الثياب فضلاً عن الاستعارة البليغة في الفعل (أَصْرُوا) وهي مأخوذة من (أصر الحمار أذنيه) والتعبير هنا جاء تحقيراً لشأنهم واتهاماً لهم بالبلادة^(٣) وأيضاً دلالة الفعل استكبر الذي يدل على الاستعلاء حيث جاء به الخطاب القرآني مؤكداً بأسلوب التوكيد وبهذا تكون دلالة الرفض هنا أوضح وأشد.

المحور الثالث: (الالتحام)

(دلالة الالتحام والامتزاج) وينفرد بهذا المعنى قوله تعالى: ((هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ))^(٤).

^١ ينظر: الكشف: ٤٧٧.

^٢ سورة نوح، آية: ٧.

^٣ ينظر: فنون التصوير البياني، د. توفيق الفيل: ٥٢-٥٣.

^٤ سورة الأعراف، آية: ١٨٩.

وفي موضع الاحتجاج ومن خلال السرد الإخباري يعرض لنا الخطاب القرآني مجموعة من الأدلة لاسيما في هذه السورة فكان من بينها هذا الدليل، قد يكون الغرض منه التذكير بحقيقة خلقهم وربما جاءت هذه الآية جوابا لسؤال توقعه الرسول ﷺ فبادرهم بجوابه، فالتغشي كناية عن الجماع، والغشيان معناه: الإتيان^(١) إذ عبر عن المعاشرة الزوجية بالفعل (تغشاهما)؛ لأن في ذكر الموصوف باللفظ الدال عليه غير قليل من الاستهجان^(٢). وليس هذا فقط ما يدل عليه الفعل (يغشى) من دلالة، فالغشيان أو الإتيان هنا مع جو السكن يُصوّر لنا التقاء الزوجين ليبدو وكأنه امتزاج والتحام طائفتين لا التقاء جسدين إيماءً بالصورة الإنسانية في المباشرة وافتراقها عن الصورة الحيوانية الغليظة^(٣)، وقصد بالصورة الإنسانية هنا اشتراط وجود الألفة والمحبة بين الزوجين وأن يحس أحدهما بالآخر والذي خصصه بالفعل (ليسكن) وقصد به الاطمئنان والميل وعدم النفور لذلك جاء تقديمه في الكلام.

ولما كانت هذه العلاقة تقوم على التدرج والاستمرارية أي حصولها مرة بعد مرة كونها غريزة جسدية ثابتة لأن بها امتداد الخلق الإنساني ونواة لحياة بين اثنين جاء بصيغة (تفعل) التي تفيد هذا المعنى^(٤) فضلا عن المعنى المذكور آنفاً، كما وتفيد معنى الصيرورة؛ فالذكر والأنثى ومن خلال هذه العلاقة يصيران إلى حياة جديدة.

المحور الرابع: (الدلالة الزمنية)

(دلالة الزمن) تحددت هذه الدلالة بالصورة الكونية المتمثلة بالدورة الزمنية لتعاقب الليل والنهار إذ شخصها لنا الخطاب القرآني بالصورة الحسية المتمثلة بالفعل (يغشى) إذ عبر به عن حقيقة علمية موجودة في الكون وهي زمن حركة الأرض

^١ ينظر: الكشف: ٣٩٩.

^٢ ينظر: فنون التصوير البياني: ٢٩٦.

^٣ ينظر: في ظلال القرآن ١٤١٢/٣.

^٤ ينظر: المذهب في علم التعريف، د. هاشم طه شلاش، د. صلاح مهدي الفرطوسي، د. عبد الجليل عبيد حسين: ٩٦.

حول الشمس لتنتج لنا الليل والنهار ولا تقتصر آيات الزمن لتحديد هذه الدلالة وحسب وإنما ما فيها من دلالة لغوية وبيانية وإعجازية كلها تضافرت لتخرج لنا هذا النظم المؤثر.

قال تعالى: ((إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ))^(١).

فالإعشاء هنا وإن كان في حقيقته وصفاً لزمن التعاقب الحاصل بين الليل والنهار ولكنه أيضاً هو وصف للهيئة الحاصلة لهذه العملية، إذ جسد الخطاب القرآني ومن خلال الفعل (يغشى) الذي من دلالاته التلبس والتغطية والستر، وكأن الليل يلبس النهار مكانه فيصير أسوداً مظلماً بعد ما كان أبيضاً منيراً^(٢) فيغطيه ويستتره وهذا ما يبدو للرؤية البصرية تماماً وهي تلاحظ هذه العملية ولما أراد تأكيد حصولها ودوامها وتكرارها جاء بقوله: (يطلبه حثيثاً) فضلاً عن صيغة الفعل (يغشى) المشددة.

وقد يفيدنا التأمل في آيات الليل والنهار التعرف على أوصاف ومرادفات أخرى أخرى تجسد حياة تعاقبها فتارة يصفها بالخلفة: أي أن يخلف كل واحد الآخر^(٣) قال تعالى: ((وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً))^(٤) ومرة يصفها بالولوج ومعناه: الدخول في مضيقي كما في قوله تعالى: ((أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ))^(٥) وفي هذا تنبيه على ما ركب الله تعالى عليه العالم من زيادة الليل في النهار أو العكس ذلك بحسب مطالع الشمس ومغاربها^(٦)، وثالثة يصفها

^١ سورة الاعراف، آية: ٥٤.

^٢ ينظر: الكشف: ٣٦٥، ٥٣٣؛ الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ١٩٥/٧.

^٣ المفردات، مادة (خلف).

^٤ سورة الفرقان، آية: ٦٢.

^٥ سورة لقمان، آية: ٢٩.

^٦ م. ن، مادة (ولج).

بالسلخ، قال تعالى: ((وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ))^(١) وهي استعارة مأخوذة من نزعُ جلد الحيوان^(٢) وأيضاً التكوير قال تعالى: ((يَكْوُرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكْوُرُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ))^(٣) فالتكوير من كَوَّر الشيء إدارته وضمّ بعضه إلى بعض وفي هذا أيضاً إشارة إلى جريان الشمس في مطالعها وانتقاص الليل والنهار وازديادهما^(٤).

وقد تكرر هذا المعنى في سورة الرعد بقوله تعالى: ((وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ))^(٥).

ولكي يؤكد الخطاب القرآني كونية هذه الظاهرة جرى ذكرها تارة مع المخلوقات السماوية كما في آية الأعراف وتارة أخرى مع المخلوقات الأرضية كما في هذه الآية.

ولأهمية هذه الظاهرة وهذا الوقت اقسم به الخطاب القرآني^(٦) قال تعالى ((وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَاهَا))^(٧) وقوله تعالى: ((وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَى))^(٨) ولو أمعنا النظر في الآيات السابقة لوجدنا أن فعل الإغشاء في سورة الرعد تقدم على الليل كون الآية تتحدث عن أفعال تتعلق بقدرة الله تعالى فكان من بينها فعل الإغشاء، أما في الآيتين الأخيرتين نرى أن الليل تقدم على الفعل لأن الموطن هنا موضع قسم بهذه

^١ سورة يس، آية: ٣٧.

^٢ م. ن، مادة (سلخ).

^٣ سورة الزمر، آية: ٥.

^٤ المفردات، مادة (كؤر).

^٥ سورة الرعد، آية: ٣.

^٦ ينظر: البحر المحيط، أبو حيان الاندلسي ٨/٤١٢-٤١٣؛ فتح القدير، الشوكاني ٥/٤٣٩٥؛ على طريق التفسير البياني ١/١٣٢.

^٧ سورة الشمس، آية: ٤.

^٨ سورة الليل، آية: ١.

الظاهرة نفسها وليس بفعالها فضلاً عن مراعاة الفاصلة القرآنية وفي هذا ملمح بلاغي وسر إعجازي كبير كون هذه الآيات وغيرها ممن أتت على نسق معين من الفواصل البيانية هي التي تحدث العرب البلغاء في ذلك الوقت وأعجزتهم. لذلك نراه كثيراً ما يأتي في مواطن الاحتجاج ليكون دليلاً غرضه التذكير والدعوة إلى التأمل والتفكير.

المحور الخامس: (الهلاك والتهديد والتخويف)

ويتشكل هذا المحور من خلال عرض لبعض حالات العذاب وصوره التي شارك الفعل (يغشى) في تصويرها وتجسيدها، فمثلاً عندما يصف وجوه أصحاب النار بقوله تعالى: ((وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءَ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ))^(١).

والتصوير هنا يتناول الزاوية النفسية من الجزاء أو العذاب، فبعدما وصف حال أصحاب الحسنات والمؤمنين في آية سابقة بقوله تعالى: ((وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ))^(٢) والقتر معناه: الغبرة^(٣) وهو تعبير أو وصف للشدة النفسية والإرهاق والتعب والتعب والاختناق وهي شدة يشترك بها جميع الناس إذ يصيبهم ولشدة الموقف وهوله يوم الحساب ولكنه نفى أن يصيب المؤمنين ما يمكن أن يصيب جميع الناس في ذلك الموقف تمييزاً لهم وعلاوا لشأنهم، ثم ذكر بعدها حال أصحاب السيئات بهذا الموقف، إذ لم يكتف الخطاب القرآني بالوصف السابق بل زاد عليه ومن خلال الصورة التشبيهية التي أتى بها الفعل (يغشى) ليصف حال تلك الوجوه الذليلة، إذ عبر بهذا التشبيه عن أقصى درجات الشدة النفسية التي يمكن أن ترتسم بها وجوه البشر في حاله الذلة فاختر السواد مضافاً له الظلمة ثم خصصها بالقطع، وكلها أوصاف حسية غرضها تجسيد تلك الحالة بشكل يسهل إدراكها واستحضارها في

^١ سورة يونس، آية: ٢٧.

^٢ سورة يونس، آية: ٢٦.

^٣ وهو شبه خان يغشى الوجوه من الكذب، ينظر المفردات، مادة (قتر).

العين والنفس، وهي أيضا رموز تتسع لتشمل دلالات أخرى، فالسواد هو رمز للسقوط والانحدار والفشل إذا ما قورن باللون الأبيض الذي يرمز به لأشياء مضاءة وقد خص الليل بقطع مظلمة منه للفت الانتباه، فتحديد الشيء ادعى للفت الانتباه^(١) وهو بهذا أراد أن يرسم لنا اشد الحالات تمزقاً وبأساً حيث لا درجة بعدها في الشدة ولكي يصل الخطاب القرآني إلى هذا المعنى جاء بالفعل (يغشى) على صيغة المبني للمجهول الذي من دلالاته هذا المعنى فضلا عن أداة التشبيه كأن التي تفيد معنى التقريب وتطابق المعنى في التشبيه ومما تقدم تتضح أهمية أسلوب الوصف والتشبيه كونها وسيلة أسلوبية استخدمها الخطاب القرآني في مجال التذكير بقدرة الله تعالى في مواضع الكفر والجحود والتكذيب لتكون هي الأداة المستعملة في عذابهم وصلاتهم وتخويف من يأتي بعدهم.

وفي موضع التدليل على قدرة المنتقم الجبار في موضع العقاب والعذاب قوله تعالى: ((إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ {٤٠} لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ {٤١})))^(٢).

والذي يتأمل هذه الآيات يتضح له:

١. إن الوصف هنا وصف لأقصى درجات الاستقرار في نار جهنم وفيه دعوة للعقل أن يفكر في أقصى درجات العذاب والهلاك.
٢. الوصف هنا تمثيل لحالهم وهيئتهم في هذا المكان فضلا عن الجانب النفسي الذي يسوده.

٣. استعمال أساليب مهمة للوصول إلى هذه الدلالة منها أسلوب التمثيل الذي تمثل في الآية الأولى يؤكد استحالة دخولهم إلى الجنة وطردهم من رحمة الله والاستعارة في لفظتي (مهاد) و(غواش) التي ساعدت في تقريب صورة الاستقرار كونه انغماساً

^١ ينظر: الكشف: ٤٦٢؛ الجامع لأحكام القرآن ٨/٢٩٩؛ دراسات فنية في صور القرآن: ٢٣٩-

٢٤٤.

^٢ سورة الأعراف، الآيتان: ٤٠-٤١.

وثباتاً في هذا المكان فضلاً عن أسلوب التقديم وذلك في تقديم جملة الخبر بقوله: (لهم من جهنم) التي تفيد معنى الاختصاص والتقييد، إذ قيّد دلالة لفظتي (مهاده) و(غواش) بجهنم وفي هذا الكلام دعوة للعقل والنفس أن تتأمل ما يمكن أن يصيب هؤلاء المكذبين والمستكبرين من عذاب لا سيما بعد معرفة دلالة لفظة مهاده وهي مكان الطفل وفيه دلالة الملاذ الآمن لإنسان لا حول له ولا قوة لا يعرف من الدنيا سوى هذا المكان وقد جاء به الخطاب القرآني هنا استهزاء بحالهم وتهكما وسخرية لأن هذا المكان وما فيه من دلالة يناقض النار وما فيها من أهوال وربما أراد من هذه اللفظة دلالة الانغماس والاستقرار حالهم حال الطفل الذي يستقر في فراشه ولا يستطيع الحركة ولا سيما في أيامه الأولى ومن معانيه أيضاً هو : المكان الممهد الموطأ أو المهيأ^(١) وفي هذا المعنى تكون فيه دلالة القصديّة في تخصيص هذا المكان لهم.

ولكي يستكمل صورة هذه الدلالة جاء بلفظة (غواش) بما تحمله من معنى (الغطاء) فضلاً عن صيغتها الصرفية على وزن (فَعَال) التي تفيد الثبوت في الوصف وربما جاء بها مجموعة ليفيد معنى الشمول فهو ليس غطاءً واحداً وإنما هو مجموعة أغطية من النار ولكي يؤكد اختصاص المهاده وهذه الأغطية بهم دون غيرهم جاء بهما منكرتين لأن من دلالات التكرير ما يفيد هذا المعنى^(٢)، ولا يكون بعدما تقدم من الوصف إلا تصورهم في الدرك الأسفل من النار مستقرين فيه يحيطهم العذاب من جميع جهاتهم لا مفرّ ولا خلاص.

ومما تقدم ندرك أهمية السياق في تحديد دلالة اللفظة، فالفعل (يغشى) أسهم في خلق شعور الخوف من خلال الجو العام للنص إذ كان وسيلة مهمة من وسائل التهديد التي أشار بها الخطاب القرآني إلى عذاب كل من كذب واستكبر وهذا ما

^١ المفردات، مادة (مهد).

^٢ ينظر: في ذلك الكشف: ٣٦٣؛ الجامع لأحكام القرآن ٧/١٨٥؛ في ظلال القرآن ٣/١٢٩١.



أكدت عليه فواصل الآيتين عندما أطلقها ليكون هذا العذاب عاماً ومطلقاً لكل من ظلم وأجرم.

وضمن أسلوب القصص وتحديدأ في سورة يوسف يأتي الفعل (يغشى) ليكون أداة ترهيب وتخويف والكلام هنا موجه لمشركي قريش لعدم إيمانهم وتكذيبهم للرسول ﷺ.

بقوله تعالى: ((أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ))^(١).

وللوصول إلى هذه الدلالة جاء بأهم أساليب المحاجة وهو أسلوب الاستفهام ولطالما استعمله الخطاب القرآني لهذا الغرض إذ يعد هذا الأسلوب مؤثراً تعبيراً لاستجابة المخاطب وتحريك انفعاله^(٢)، والاستفهام هنا إنكاري ينكر عليهم عدم تصديقهم بالرسول ﷺ أو الآيات الموجودة في هذا الكون وفيه دلالة الإنذار والتخويف.

ولما أراد المبالغة في وصف سرعة وقوع هذا العذاب أتى بالفعل (يغشى) بصيغة الاسمية التي تدل على تأكيد وقوعه وهو اسم الفاعل وكأنه في هذا الموضع أتى ليكون العذاب نفسه وليس من وسائل العذاب كما في بعض النصوص السالفة الذكر، كما في هذه الصيغة من دلالة العموم والشمول والشدة والمبالغة^(٣) ما يشير إلى عظم هذا العذاب وشدته.

والحديث عن الاستفهام يجزنا إلى الحديث عن قوله تعالى ((هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ {١} وَجُوءَ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةً))^(٤)، ويأتي الفعل (يغشى) من خلال هذه الصيغة

^١ سورة يوسف، آية: ١٠٧.

^٢ ينظر: أساليب الاستفهام في القرآن، عبد العليم السيد فودة: ٢٩٦؛ الإعجاز اللغوي في القصة

القرآنية، محمد السيد حسن: ٢٥٣.

^٣ ينظر: معاني الأبنية: ١٢٢.

^٤ سورة الغاشية، الآيتان: ١-٢.

ليدل على يوم القيامة لذلك جاءت معرفته وربما أراد بهذه الصيغة شمولية جميع الناس جميعاً في هذا اليوم بشدائد هذا اليوم وأحواله^(١). والكلام هنا عن الاستفهام، فهناك من يرى أن هل هنا هو استفهام أريد به التعجب مما في حيزه والتشويق إلى استماعه^(٢) وهذا هو رأي الباحثة أيضاً، إذ يعتمد الخطاب القرآني في أحيان كثيرة إلى تشويق النفوس بأساليب مختلفة فكان من بينها أسلوب الاستفهام ولأهمية هذا اليوم وما فيه من أحوال أراد القرآن لفت الانتباه إليها ومعرفتها قَدَمَها بهذا الأسلوب، فالسؤال هنا يستميل اهتمام القارئ ويشوقه إلى معرفة ما سيأتي بعد الاستفهام فيدعوه إلى مزيد من التعرف لذلك نراه قد فصل في هذه الأحوال التي تغشى الناس في ذلك الوقت وذلك من خلال أسلوب الإطناب الذي ساد السورة بأكملها ليصل بالعقل والنفس إلى التفكير والتأثير وفي هذا الكلام تخويف وترهيب للنفس أيضاً.

يتضح من خلال استقراء نصوص هذا المحور كثرة أوصافه وشموليتها إذ لم يحدد الخطاب القرآني نوعاً واحداً من غشيان العذاب فقد يأتي الوصف مطلقاً كما في الغاشية أو مقيداً كما في النصوص الأخرى وأماكن العذاب كثيرة قد تتسع لتكون نار جهنم أو تتحصر لتتحدد بمكان في السماء أو مكان في الأرض كما في صورة غشيان البحر في قوله تعالى: ((وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَّجٌ كَالظُّلَلِ...))^(٣)، ولما كان هذا العذاب مخصصاً لبني البشر تراه يأتي تارة ليختص بجهة معينة فيه كالوجه مثلاً كما في قوله تعالى: ((... وَتَغْشَى وَجُوهَهُمُ النَّارُ))^(٤) لدلالة يقصدها الخطاب القرآني

^١ ينظر: الكشف: ١١٩٨-١١٩٩.

^٢ وهذا الرأي لأبي السعود الذي جاء رأيه مخالفاً لرأي سابقيه من النحاة والمفسرين الذين يرون أن هل هنا بمعنى (قد) كما في قوله تعالى: ((هل أتى على الإنسان حين من الدهر)). ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبي السعود ٢٥٨/٥؛ أبي السعود أنموذجاً، د. حامد عبد الهادي حسين، مركز البحوث والدراسات الإسلامية: ٥٦.

^٣ سورة لقمان، آية: ٣٢.

^٤ سورة إبراهيم، آية: ٥٠.

وهي دلالة المهانة ذلك إن الوجه اعز موضع في ظاهر البدن وأشرفه^(١) فضلاً عن دلالة العذاب أو الهلاك.

وتارة يحيط به العذاب ويشمله وذلك عندما يخصص بجهات الإنسان أو جانبيه قال تعالى: ((يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ...))^(٢) وفي هذا الوصف، الغشيان معناه الإحاطة الكاملة التي لا مفر منها^(٣) وهذا تفسير لقوله تعالى: ((... وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ))^(٤) في الآية التي قبلها فالغشيان عندما يكون من فوق فهو اعم^(٥).

وأوصاف العذاب مختلفة إما معنوية تخاطب العقل أو حسية تخاطب النفس وعلى ما تقدم نرى أن الأساليب والألفاظ والمعاني قد تنوعت واختلفت أيضاً ولكنها في النهاية تلقي وتشترك بدلالة التخويف والإنذار والترهيب وهذا هو الغرض الحقيقي لكل ما ذكر.

الخاتمة

أهم النتائج التي توصل إليها البحث:

قد يقترن الاستعمال الحقيقي بالتعبير المجازي في القرآن الكريم لتأكيد حقيقة كبرى وتصوير معلم بارز من معالم الأحداث المهمة يشكل من خلالها الخطاب القرآني خصائص أسلوبية مميزة في العرض والأداء والتعبير حتى تعود تلك الخصائص ظاهرة لغوية معينة يؤكد لها أسلوب الخطاب القرآني المرة بعد الأخرى وتمثلها في كتاب الله الآية عند الآية^(٦) وهذا ما ينطبق على الفعل (يغشى) بمختلف

^١ ينظر: الكشاف: ٥٥٧.

^٢ سورة العنكبوت، آية: ٥٥.

^٣ ينظر: م. ن: ٨٢٢.

^٤ سورة العنكبوت، آية: ٥٤.

^٥ ينظر: الجامع لإحكام القرآن ٣١٨/١٣.

^٦ ينظر: مجاز القرآن خصائصه الفنية وبلاغته العربية، د. محمد حسين علي الصغير: ٩٠.

أساليبه وصيغه التي تردد فيها فمثل لنا نظاما أسلوبيا كشف لنا عن الكثير من الحقائق ومثل لنا الكثير من الحالات:

١. أن الفعل (يغشى) في الخطاب القرآني ليس مجرد فعل يحمل دلالة الستر أو الغطاء كما انه لم يأت على صيغة واحدة وإنما أتى على صيغ مختلفة داخل تركيب اكتسب من خلالها وظائف عديدة ودلالات جديدة لذلك أن التحول فيه لا يقوم على الاستبدال وحده.
٢. استعمله الخطاب القرآني داخل هذه التراكيب في مواطن الاحتجاج ليكون دليلا أسلوبيا يصل به إلى مقاصد كبرى تتعلق بوجود الخالق ﷻ واليوم الآخر... الخ.
٣. من تحولات الفعل (يغشى) انه يأتي ليشكل لنا صورا فنية تسهم في رسم الكثير من الحالات النفسية في مشاهد العذاب أو تكشف عن سرائر المنافقين ودواخلهم وغير ذلك.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود، طبعة مصححه بمعرفه بعض أفاضل العلماء بأشراف محمد عبد اللطيف، مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة ١٩٥٢م.
٢. أساليب الاستفهام، عبد العليم السيد فوده، مؤسسة الشعب، القاهرة، د.ت.
٣. أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٨م.
٤. الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية، محمد السيد حسن مصطفى، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د.ت.

٥. البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، مطابع النصر الحديثة، الرياض، المملكة العربية السعودية، د ت.
٦. البديع، عبد الله ابن المعتز، دار الحكمة، دمشق، ب ت.
٧. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٨٨.
٨. البلاغة والمعنى في النص القرآني، تفسير أبي السعود أنموذجاً، د. حامد عبد الهادي حسن، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، بغداد، ٢٠٠٧.
٩. بنية اللغة الشعرية، جون كوهين، ترجمة محمد المولى و محمد العمري، الدار البيضاء، المغرب، ط ١، ١٩٨٦ م.
١٠. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ، بيروت، ٢٠٠٠.
١١. تحليل الخطاب الشعري، إستراتيجية التناص، د. محمد مفتاح، دار التنوير، بيروت، ١٩٨٥ م.
١٢. تحولات بُنى الخطاب القرآني في مشاهد القيامة والقصص (دراسة أسلوبية)، ط، بلقيس كولي الخفاجي، بأشراف د. حيدر لازم، ٢٠٠٥ م.
١٣. التعبير القرآني، د. فاضل السامرائي، بيت الحكمة، ١٩٨٦ - ١٩٨٧.
١٤. تفسير النسفي، أبو البركات عبد الله احمد بن محمود، مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، ط ١، دار إحياء الكتب العربية.
١٥. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي،
١٦. دراسات فنية في صور القرآن، د. محمود البستاني، ط ١، ١٤٢١ هـ، مؤسسة الطبع التابعة للأستانة الرضوية.
١٧. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد عبدة، ط ٣، المعارف، مصر.

١٨. دور الكلمة في اللغة، استيفن اولمان، ترجمة كمال محمد بشير، القاهرة، ١٩٦٣.
١٩. السيميائية وفلسفة اللغة، امبيرتو ايكو، ترجمة احمد العمري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت.
٢٠. الشعرية، د. احمد مطلوب، مجلة المجمع العلمي العراقي، م ٤٠، ج ٣-٤، بغداد، ١٩٨٠ م.
٢١. طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، قراءة وشرح : محمد محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٤٧ م.
٢٢. الطراز المتضمن لإسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، دار الكتب العلمية، د ت.
٢٣. على طريق التفسير البياني، د. فاضل السامرائي، مركز البحوث والدراسات، جامعة الشارقة، ٢٠٠٤.
٢٤. علم الدلالة إطار جديد، ف ر بالمر، ترجمة : صبري إبراهيم السيد، دار قطري بن الفجاءة، الدوحة، ١٩٨٦ م.
٢٥. فتح القدير، الشوكاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان / د ت.
٢٦. فنون التصوير البياني، د. توفيق الفيل، ذات السلاسل، الكويت، ط ١، ١٩٨٧.
٢٧. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق ، ط ٦.
٢٨. القرآن والصورة البيانية، د. عبد القادر حسين، دار المنار، القاهرة، ١٩٩١.
٢٩. الكشف، الزمخشري، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط ٢٠٠٢ م.
٣٠. لسان العرب، محمد بن مكرم الأنصاري ابن منظور، إعداد وتصنيف : يوسف خياط، دار لسان العرب، بيروت، لبنان، ب ت.
٣١. لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د. فاضل السامرائي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط ١، ١٩٩٩ م.

٣٢. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق : احمد الحوفي و بدوي طبانه، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهرة، ١٩٦٠ م.

٣٣. مجاز القرآن خصائصه الفنية وبلاغته العربية، د. محمد علي الصغير، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٤.

٣٤. معاني الأبنية، د. فاضل السامرائي، جامعة الكويت، كلية الآداب، ط ١، ١٩٨١.

٣٥. المعجم المفهرس في ألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب المصرية، د ت.

٣٦. مفتاح العلوم، السكاكي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٧. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، مراجعة محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٣٨. من بلاغة القرآن، د. محمد شعبان علوان و د. نعمان شعبان علوان، الدار العربية للنشر، ط ١، ١٩٩٨ م.

٣٩. المذهب في علم التصريف،

٤٠. النكت في اعجاز القرآن، علي بن عيسى الرماني، ضمن ثلاث

رسائل في اعجاز القرآن، تح محمد خلف الله و محمد زغلول، دار المعارف، مصر، ط ٢، ١٩٦٨ م.

